2

في واجهة الحرب

مسرحية ألمانية ـ فرنسية
بين حلفاء المستقبل
موسكو والسرية الشاملة

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

مسرحية ألمانية ـ فرنسية

1

ليس هناك استخبارات «بذاتها». وليس هناك طرق عمل نمطية، تتبع فيتم الحصول على معلومات حول الشؤون السرية للدول الأخرى. يرتبط كل شيء، في هذه المهنة المحاطة بالأسرار، بالوضع الملموس، الذي يتكون من إمكانات وفرص متاحة. إلى هذا، تتعين طرق العمل بظروف العصر والسياسة والطابع القومي، مثلما تتعين بالمواهب، أي بنجاح المسؤولين المعنيين ومعاونيهم أو فشلهم. وقد يحدث أيضاً أن يسرب المرء معلومات محددة إلى أعدائه، لا تكون خاطئة بالضرورة، ليحقق غرضاً نفسياً أو سياسياً، وهو أمر كان شائع الحدوث خلال الحرب العالمية الثانية. وثمة ممكنات أخرى تنشأ عن بواعث وأيديولوجيات سائدة، بما أن الكلمة الأخيرة في الحروب السرية هي للممسكين بالسلطة من رجال ومجموعات، الذين يستخدمونها بطرق دكتاتورية أو عشوائية. لئن كان كلاوزڤتز قد قال ذات مرة «لقد خاض التتار نصف المتمدنين، وخاضت جمهوريات العالم القديم، وخاض سادة الإقطاع، وخاضت مدن العصر الوسيط التجارية، وخاض ملوك القرن الثامن عشر، وخاض أخيراً الأمراء وخاضت الشعوب في القرن التاسع عشر... الحروب بطرق مختلفة، بوسائل مختلفة، ولهدف مختلف»، فإن هذه الفرضية تنطبق اليوم وستنطبق

غداً على الحروب المفتوحة، وكذلك على الحروب الخفية والسرية، التي تجري في العتمة والضباب، وتبقى فيها دوماً مكونات سياسية وقومية، حتى في عصر الأيديولوجيات العالمية. لكل جهاز مخابرات طرقه الخاصة به، هذا ما تؤكده الممارسة في فترة ما قبل الحرب العالمية الثانية، وخاصة منذ 1936.

لنلق، بادئ ذي بدء، نظرة عامة على «الوضع الكبير»، الذي ساد آنذاك. كان مصير أوروبا وبقية أجزاء العالم، يتعين في ثلاثينيات القرن الماضي على يد دول ظهرت بعد القوى العظمى الأربع، التي ارتبط تاريخ العالم بها حتى سنة 1914، وهي بريطانيا وفرنسا وألمانيا (بصورة محدودة) والعملاق الروسي، الذي انتشر بين شرق أوروبا ومجموع المجال الشمالي للقارة الآسيوية. صحيح أن ثورة أكتوبر/تشرين الأول، التي قامت سنة 1917، غيرت بنى هذه الإمبراطورية العملاقة وسكانها أكثر بكثير مما غيرت الهزيمة والسقوط ألمانيا سنة 1918، لكن الروس بقوا في جوهرهم روساً، والألمان ألماناً، وإن في ظل علامات سياسية مغايرة، ومجموعات مسيطرة جديدة. بالمقابل، ظلت القوى الأوروبية المنتصرة، أي فرنسا وبريطانيا، بمنأى عن أي تغيرات عميقة، وهو ما قد يكون سبب التوترات السياسية الملحوظة، التي تعرضت لها، والانحسار الجلي في قدرتها على المبادرة، الذي اقترن بالأزمة الاقتصادية العالمية في ثلاثينيات القرن الماضي. وبينما كسبت ألمانيا المهزومة وروسيا الثورية قوة جديدة في ظل أيديولوجيات دكتاتورية، ونما نفوذهما القاري بمرور السنين، تراجعت بريطانيا العظمى الكونية وفرنسا القارية تراجعاً حثيثاً، فكان هناك ثمة ركود في جانب، وديناميكية وتوسع في جانب آخر، انعكسا على أجهزة استخباراتهما، يمكن متابعة آثارهما بتفاصيلها الدقيقة، من خلال المذكرات التي كتبها الملحقون العسكريون.

كان الركود السياسي واضحاً بصورة خاصة في فرنسا، التي أرهقت تضحيات الحرب العالمية الأولى الدموية والرهيبة شعبها، وأفقدته إرادة القوة والرغبة في تأكيد الهيمنة الأوروبية، التي كانت له قبل الحرب مباشرة، على الرغم من أنه تمت المحافظة على الألق الظاهري للديبلوماسية الفرنسية، التي بقيت على ألمعيتها، بينما كانت وتيرة تغيير الحكومات الضعيفة، وخاصة منها حكومة الجبهة الشعبية في الثلاثينيات من القرن الماضي، تعكس حقيقة الأمور. أمن قبيل المصادفة والعبث أن هتلر شن هجوماً نفسياً ضد إرادة الحرب لدى الفرنسيين، بينما كان ينتهز حتى سنة 1937 المناسبات جميعها من أجل تأكيد رغباته السلمية؟[1]. لقد كان الملايين من جرحى الحرب والمتضررين منها ينشدون السلام، وقد تصالحوا في قرارة أنفسهم منذ وقت طويل مع الألمان. وكان «السيد دوبونت» (لقب يطلقه المؤلف على المواطن الفرنسي!) يريد الهدوء من أجل صفقاته، وكانت البرجوازية الفتية والهرمة تنشد مختلف أنواع الاسترخاء من أجل غرامياتها. إلى ذلك، كان القوم راغبين في دفع ثمن مرتفع مقابل تأمين أنفسهم ضد جارهم الشرقي المضطرب، فوافقوا على بناء خط ماجينو وأنفقوا عليه المليارات. إلا أن كتلة الفرنسيين الأكبر واصلت النظر بارتياب إلى ما وراء نهر الراين، بمجرد أن وصل هتلر إلى السلطة. وقد كانت على حق في موقفها هذا، كما ظهر سنة 1939.

2

بقي الرايش الألماني بصورة دائمة في مركز اهتمامات فرنسا الاستخبارية بعد سنة 1871. وحافظ على موقعه هذا بعد هزيمة ألمانيا سنة

(1) خبر شخصي علم به المؤلف.

1918. تابع الفرنسيون بقلق وانتباه التسلح الألماني قبل، وخاصة بعد، سنة 1933، وكانوا على دراية بوجود الجيش «الأسود» وبالوحدات شبه العسكرية ـ ليس هذا عملاً خارقاً، لأن لجنة المراقبة الحليفة كانت تتجول في طول ألمانيا وعرضها، بينما كانت منطقة الراين محتلة (حتى سنة 1930) ـ. غير أن تدفق المعلومات تناقص بعد ذاك، إلى أن شح في ألمانيا ذاتها، وتراجعت أهميته بالمقارنة مع سنوات العشرينيات من القرن الماضي، حين استخدم التفوق العسكري بطريقة حاسمة، وتم ببساطة احتلال منطقة الرور سنة 1923. بما أن هذا الزمن كان قد انصرم، تمكن هتلر سنة 1935 من إعادة الخدمة الإلزامية العامة إلى ألمانيا، واحتلال المنطقة المنزوعة السلاح في بلاد الراين بعد سنة، وإن كان احتلالها قد تم بصورة رمزية أول الأمر، اقتصرت على ثلاثة أفواج من قواته، من دون أن يحدث رد عسكري مقابل، على الرغم من أن فعلته غيرت الوضع الاستراتيجي على الراين من أساسه، وقلبت الأمور رأساً على عقب: فلم يعد حصناً فرنسياً بل تحول إلى منطقة تجمُّع حرة بالنسبة إلى أي معتد ألماني محتمل. آنذاك، بدا أن مجموعات فرنسية كبيرة تصدق تأكيدات هتلر السلمية، التي كانت تلي كل عمل توسعي يقوم به.

ماذا كان موقف الاستخبارات الفرنسية؟. لقد أطلقت صفارة الإنذار، وأشارت إلى وتيرة التسلح الألماني السريعة، وبرهنت على وقوعه.

في هذا الوقت بالذات، تولى قيادة المكتب الثاني، مركز الاستخبارات العسكرية في وزارة الحرب الفرنسية، العقيد ثم الجنرال جوشيه[1]، الذي

(1) انظر أيضا جوشيه: مهمة وطريقة عمل المكتب الثاني، في مجلة علوم الدفاع، السنة العاشرة (1961)، ص 576-579.

كانت قد سبقته إلى عمله الجديد سمعته كرجل حذر متوجس، مع أنه كان في الحقيقة ممثلاً نموذجياً لنزعة الاسترخاء الفرنسية السائدة. يقدم سترونج، زميل جوشيه البريطاني ورجل الاستخبارات في وزارة الدفاع، الذي كثيراً ما عمل معه بين سنتي 1939 و1940، وصفاً عيانياً له يقول[1]: «إنه فرنسي نموذجي، مواطن ميال للراحة وموظف إداري ذكي أكثر منه جندياً بالمفاهيم الإنجليزية أو الألمانية. وهو لا يميل إلى الخروج من ذاته، إلا أنه على استعداد دائم للتعاون، إن كان يقدم معارف عملية. إلى هذا، فإن عينيه تشعان ذكاء من خلف نظارته، خاصة عندما ينخرط في حديث مهني. كما أنه رئيس جيد لمكتبه، الذي يفتقر طبعاً إلى عدد كاف من الموظفين ـ ربما فسر هذا تعلقه بالعمل المكتبي[12] ـ هذا هو رئيس المكتب الثاني الشهير في وزارة الحرب الفرنسية، الذي كانت مهمته شبيهة بمهمة الشعبة الثالثة (الجيوش الأجنبية) في الأركان العامة للجيش الألماني. يرى سترونج أن القوم في باريس ذهبوا بعيداً، تحت ضغط اندفاع ديكارتي نحو منهج ما، فغابت عنهم المسألة الرئيسة، لكثرة ما قاموا به من تأملات وحسابات ووضعوه من فرضيات وطروحات حول النوايا الممكنة للقوات المسلحة الألمانية، وخاصة حول السؤال عن ما تريده وحداتها المدرعة وما تستطيع القيام به. إلى هذا، يلاحظ سترونج ناقداً أن أعداد الوحدات الألمانية الكبرى، المعروفة أو المتوهمة، كانت على الدوام أعلى لدى الفرنسيين بـ 20٪ من أعدادها لدى البريطانيين. ويقول إن مبالغاتهم تركزت بصورة خاصة على سلاح الجو الألماني. وزاد الطين بلة أن العقيد جوشيه كان يحظى بصدقية تامة لدى الجنرال جاملان، المفتش العام للجيش الفرنسي ونائب رئيس اللجنة العليا للدفاع الوطني منذ سنة 1935، الذي مال بدوره

(1) سترونج، الجزء الثاني، ص 67 وما يليها.

إلى المبالغة في تثمين هذا المنهج، فشلت مبادرته وعطلتها تماماً سنة 1939.

كان جهاز الاستخبارات الفرنسية منظماً بطريقة تجعل الحصول على المعلومات من اختصاص المكتب الخامس، الذي كان يسمى «مكتب الاستعلامات». بينما كان المكتب الثاني يطرح المهام، ويجمع النتائج، ويقومها، وينقلها إلى الجهات العليا[1]. في ما عدا ذلك، كانت استخبارات فرنسا مطبوعة بطابع ثنائية غريبة في كل ما يتعلق بألمانيا، ترجع إلى أن الحكومة الفرنسية كانت تخاف هتلر وتستهين به في آن معاً، لأن سلوكه لم يكن متفقاً مع الأسلوب الديبلوماسي المألوف ـ كما كانت تبالغ منذ سنة 1936 مبالغة شديدة في تقدير قوة قوات ألمانيا المسلحة، وقدرات الرايش الحربية[13]. يرجع هذا إلى سبب غريب بدوره، هو أن المكتب الثاني لم يكن يحصل على معلومات قليلة أو غائمة ـ بحسب الشكوى الأبدية لسائر أجهزة الاستخبارات ـ بل كانت لديه معلومات كثيرة جداً، تصله مباشرة من العدو. هذا كان أمراً جديداً في هذه المهنة، جعل الفرنسيين يتجاهلون الواجب الأول لجميع أجهزة الاستخبارات، أعني الشك حتى تجاه المصادر «الأولى»، وتالياً التأكد بدقة من صحة المعلومات، بعد استشارة الحلفاء. من هنا، بدا خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب وكأن المكتب الخامس، الذي يمكن مقارنته بشعبة المكافحة الألمانية في ما يتعلق بالحصول على المعلومات، لا لزوم له، خاصة في ما يتعلق بسلاح الجو الألماني ـ وهذا حدث فريد في بابه ـ.

بقي هذا التطور الغريب غير مفهوم إلى ما قبل سنوات قليلة، عندما قدم تفسيراً له كتاب يضم ذكريات جنرال سلاح الجو الفرنسي اللاحق بول ستيلين، التي صدرت سنة 1946 في باريس تحت عنوان لافت هو مهمة في

(1) انظر سترونج، الجزء الثاني، ص67-108.

برلين، ثم ترجمت سنة 1965 إلى اللغة الألمانية وصدرت في برلين[1]. يقول الكتاب أشياء كثيرة، بما في ذلك أشياء تسكت عنها الوثائق، أو يمكن استخلاصها منه، إن نحن قومناه بطريقة ضباط شعبة الأركان الثالثة المجربة[1]؛ أشياء توضح بجلاء أن شعبة جمع المعلومات في سلاح الجو الألماني، وكانت طفل الرايش الثالث المدلل، لجأت في حينه إلى طرق لم تكن معروفة من قبل من أجل نشر المعلومات بأي ثمن، مع أن هدفها كان إحداث تأثير نفسي وتضليل معلوماتي، يبقيان فرنسا بعيدة عن الحرب قدر المستطاع، الأمر الذي استخدم الألمان الطريقة التالية في سبيل تحقيقه: ثمة انفتاح معين هو جزء من سجايا الألمان القومية، حتى إن جيل الألمان الأقدم كان يعتبر «الانفتاح والاستقامة» مستلزمات أولى للسلوك الأخلاقي. يستطيع المرء بطبيعة الحال استخدام هذا السلوك بطريقة هادفة، قد تكون ذات مرام وهمية أيضاً، ليبلغ بواسطتها مقاصد محسوبة. وهذا ما فعله الاشتراكيون القوميون وعلى رأسهم هتلر. أما هدف هذا «الانفتاح»، الذي ذكر في تقرير كتب سنة 1937 وكان يجب أن يحاط بالسرية والكتمان، فكان التأثير على الفرنسيين عبر التأكيد على قوة وحداثة وقدرة سلاح الجو الألماني الضاربة، وعبر المبالغة فيها، على أمل أن يتفق سلوكهم السياسي مع ما تريده ألمانيا. لم يترك الألمان هذه اللعبة للأجهزة الدنيا، بل قام بأدوارها الرئيسة جورينج نفسه، ثم مساعده الرئيس الجنرال بودنشاتس، وكذلك الجنرال أودت. ليس من المؤكد ما إذا كان الفرنسيون قد أدركوا ما كان يراد بهم، ولكن لنتأمل، في جميع الأحوال، ما كتبه آنذاك مساعد الملحق الجوي الفرنسي، كابتن بول ستيلين، الذي كان وسيطاً نقل من دون تردد بعض تلك التسريبات الهادفة، المعدة خصيصاً من أجل فرنسا.

(1) ستيلين: انظر قبل كل شيء مقطع: «جورينج، محيطه وأسرته»، ص 62-72.

بعد عيد الفصح بقليل، دعي ستيلين، الفرنسي الشاب اللطيف من أصل ألزاسي، الذي «كان يتقن الألمانية بدرجة خطيرة»، حسب قول الملحق العسكري الألماني في باريس العميد كولنهالت إلى رئيسه في برلين، في الدقيقة الأخيرة كبديل لمدعو آخر إلى عشاء شاركت فيه أيضاً السيدة ريجليه، ابنة جورينج المدللة. تلك كانت إحدى المصادفات اللصيقة بهذه المهنة. منح ستيلين مكاناً تشريفياً قرب السيدة ريجليه، فنشأت مسامرة حيوية بينهما، أغدق خلالها المديح على «خالق سلاح الجو الألماني». أعجبت السيدة ريجليه بما قيل، فدعت الكابتن إلى منزلها في اليوم التالي ـ ليجد جورينج شخصياً في انتظاره. بعد تحية قلبية حارة، انفرد مارشال الرايش بستيلين وقال له من دون مواربة، حسب رواية الأخير[1]: «لدينا، بالمقارنة معكم، ميزة أننا بدأنا من لا شيء. ليس لدي غير المساعدين الديناميكيين والمفعمين بالخيال الخصب من ذوي الأفكار الحديثة، الذين يمكّنهم وضعهم من ابتداع الجديد، وبناء طائرات كتلك التي يحتاج إليها المرء منذ سنة 1937. ولقد أبعدت عني كل من أراد إعادة ربط ألمانيا بالماضي، بسنة 1918، بينما لن تفعلوا أنتم الشيء ذاته». حاول الفرنسي، الذي عقدت المفاجأة لسانه، الرد بلطف، لكن جورينج ضحك، قبل أن يمسك بذراعه ويواصل حديثه بتبجح: «إذا لم تغيروا المسؤولين عندكم، فإن ما نمتلكه لن يكون له قريباً أي وجه شبه على الإطلاق مع ما تمتلكونه. اذهب إلى القواعد الجوية، تفرَّج على التدريبات، وقم بزيارة مصانعنا، فليس لدي ما أخفيه عنك، وستحصل على تصور أفضل حول أفضل أسلحتنا». كان توفير إمكانية كهذه للحصول على المعلومات، فرصة لا تعوض بطبيعة الحال بالنسبة إلى الكابتن ستيلين، الذي عرف كيف يفيد منها، ويقيم صلة دائمة

(1) ستيلين: المرجع ذاته، ص 68.

مع الجنرال إرنست أودت، وقبل كل شيء مع الجنرال بودنشاتس. ثمة صداقة نشأت بالتأكيد بين الشيخين والشاب، حتى صار بودنشاتس، «المنفتح والمستقيم»، أفضل مزودي المساعد الفرنسي بالمعلومات. هنا، توضح «النظرة العامة لمجمل الظروف»، التي لم نمتلكها إلا اليوم، ما كان يحدث آنذاك، وإن بدا أن ستيلين لم يدرك تماماً أبعاده حتى يومنا، لذلك يكتب وقد أدهشته وفرة المعلومات التي كانت تعطى له وقيمتها: «... كنت مقتنعاً بالقدر نفسه أن بودنشاتس كان يقول لي أحياناً، من دون وعي منه، أكثر بكثير مما كان يريد قوله. على كل حال، وبغض النظر عن الطريقة التي يمكن للمرء أن يفسر بها المعلومات السرية، التي كانت تقدمها شخصية ألمانية في موقع مسؤول إلى مقدم في الاستخبارات الفرنسية، فإنني لم أعتبر بودنشاتس في أي وقت مخبراً. لقد أراد أن يخدم بلده، وأرجح أنه كان يعمل ضد خطط هتلر الحربية، بالاتفاق مع جورينج .

هل هذا ما أراده الرجلان حقاً؟. لا شك في أنهما كانا على قدر من الصراحة حيال رجل الاستخبارات الفرنسي، لأنهما كانا يتوخيان تحقيق هدف مشترك هو: إبقاء فرنسا خارج حرب كان هتلر مصمماً على شنها، ووسيلتهما إلى هدفهما تعريضها لـ «سلوك باهر»، كما نقول اليوم. لقد أرادا الإسهام في جعل الصراعات الوشيكة على حدود الرايش الشرقية تقتصر عليها، كي لا تنشأ عنها حرب عالمية جديدة. فقد كان جورينج يعرف أن توسع النزاع سيؤدي إلى تحويله إلى حريق عالمي، فقرر أن يكون صريحاً مع الفرنسي، كي يمنع نشوبه. ـ عملياً، بقي بودنشاتس آنذاك ناطق حكومة هتلر المؤتمن، لأنه قدم إلى ستيلين معلومات لا تقتصر على سلاح الجو الألماني. ذلك ما يؤكده الحدث التالي، الذي يستحق أن يحظى بإبراز

خاص، للطريقة التي يصفه ستيلين بها[1]: حدث الأمر مجدداً بعد دعوة إلى العشاء، دعا إليها هذه المرة السفير الفرنسي فرانسوا بونسيه أعضاء من حكومة الرايش وبعض الضباط ـ الألمان والفرنسيين ـ بينهم بودنشاتس وستيلين. بعد تناول الحساء، أعطى بودنشاتس إشارة إلى ستيلين فانسحب الرجلان إلى زاوية هادئة في غرفة جانبية، حيث قدم جنرال سلاح الجو الألماني إلى مساعد ملحق سلاح الجو الفرنسي خبراً لا علاقة له بسلاح الجو، يتصل بإجراء استراتيجي ينصب على دفاع ألمانيا الأرضي: بعد إبراز سلوك ألمانيا وموقفها السلمي تجاه فرنسا، أكد الجنرال «إرادة الفوهرر التي لا تتزعزع» في التخلص من أي مادة صراع مع فرنسا، وأضاف حرفياً: «تريد حكومة الرايش البرهنة على سلوكها السلمي تجاهكم، بإقامة خط دفاعي يمتد من بحر الشمال إلى سويسرا، على طول الحدود الهولندية / اللوكسمبورجية / البلجيكية / الفرنسية، يضمن تحصين حدودنا الغربية من خلال عدد كبير من المخابئ»، ما لبث أن ذكر تفاصيل حول نوعها، وتحدث عن قوة العمل التي ستقيمها وأورد أرقاماً حولها، بينها عدد أفواج المهندسين، الذي سيبلغ 65 فوجاً، وتجاهل أن من غير الممكن أن تكون هذه الأفواج «حقيقية» كلها، وأنها تشمل وحدات من منظمة تودت (الموت)، لأن الجيش كان يمتلك سنة 1938 حوالي 65 فوجاً، حسب السجلات المتوفرة، كلف ربعها بمهام خاصة كبناء الجسور وما شابه. أخيراً، أكد بودنشاتس مرة أخرى بإلحاح: «ليس لدينا أي نوايا عدوانية تجاه فرنسا، ولن نمس فرنسا بأي حال من الأحوال. كل ما نريده هو ببساطة إقامة قاعدة تفاوضية إضافية معكم ومع الإنجليز، تجعلنا نثق من حيادكم عند اندفاعنا نحو الشرق، الذي سيكون اقتصادياً بالدرجة الأولى». هذا

(1) ستيلين، ص 92-99: التحصينات الألمانية في الغرب، خط سيجفريد.

التوضيح، الذي ندين بمعرفته لستيلين، مهم من أوجه ثلاثة: أولها أنه يتم إعلام الفرنسيين ببناء جدار الغرب بطريقة غير رسمية، ولكن من شخص رسمي رفيع المستوى يحتل موقعا قياديا في القيادة العسكرية الألمانية. وثانيها أنه يتيح التلاعب باستخبارات فرنسا، بتقديم معلومات مبالغ فيها لها، يتطلب التأكد من صحتها نفقات كبيرة. وأخيراً أن هتلر استخدم أسرع الطرق، طريق الاستخبارات السرية، ليخبر الحكومة الفرنسية بأسلوب مطمئن ما كان يفكر فيه وينفذه. فضلا عن ما تقدم، أضمر التوضيح، الذي اتخذ شكلا تصالحيا، تحذيرا صريحا لفرنسا: يخبرها أن جيشها سيجد حدود الرايش الغربية جاهزة دفاعيا، إن هي تورطت في مغامرة تدخل عسكري ضده، مع بدء توسعه الوشيك في الشرق (النمسا، بلاد السوديت، تشيكوسلوفاكيا). هذا كله فهمته باريس بصورة صحيحة، كما بينت الأحداث التالية.

حققت المعلومة السرية النجاح المرغوب، فقد حركت جهاز الاستخبارات الفرنسية، الذي سارع إلى حساب الفترة الزمنية، التي تحتاج ألمانيا إليها من أجل تأمين أهلية الجدار الغربي الدفاعية، واستعان في حساباته بالوثائق الألمانية حول بناء ما سمي خط سيجفريد أثناء الحرب العالمية الأولى، مثلما يخبرنا ستيلين. وقد وجد الفرنسيون أن الألمان احتاجوا سنة 1916/ 1917 إلى تسعة أشهر كاملة لإكمال الخط: «بمقارنة سائر العوامل المعروفة، كطول التحصينات وعمقها، وحجم قوة العمل المستخدمة في بنائها، ومواد البناء المطلوبة وغيرها كثير، توصل ملحقنا العسكري إلى نتيجة تقول إن الأعمال الجديدة ستتطلب قرابة اثني عشر شهراً، وستستمر حتى صيف سنة 1939». وهذا استخلاص كان صحيحاً في قسماته العامة. ومع أن بناء الجدار الغربي لم يكن قد انتهى على كل حال بعد، فإن الهدف الرادع منه كان قد تحقق، في نهاية صيف سنة 1939 .

هذه النتيجة، التي تمخضت عن تقويم المسائل المرتبطة بـ«جدار الغرب»، تم إبلاغها بسرعة طبعا إلى الجنرال غاملان. منذ تلك اللحظة، اخذت القرائن جميعها تشير إلى تأثيرها على خطط شعبة العمليات الفرنسية. لقد ضلل «جدار الغرب» فرنسيو ذلك الزمن، الذين كانوا يفكرون بأكثر المناهج كمالا، لأنهم كانوا عازفين عن تأدية ضريبة دم مرتفعة جديدة، سيتطلبها، وفق تصورات الحرب العالمية الأولى، هجوم جبهي هو الوحيد، في حال لم تستخدم المدفعية الثقيلة والأثقل. هكذا برز الميل إلى السلبية والترقب، ريثما تلحق إنجلترا وفرنسا بألمانيا، وتتسلحان على أفضل صورة. لم يدرك الفرنسيون أن الزمن كان يعمل لصالح النظام الديناميكي، الذي كان يحقق قفزات تسليحية لا تني تتعاظم، أقله خلال السنوات التالية، وأن هذا النظام كان دكتاتورية هتلر.

بفضل مثل هذه الصلات البرلينية الوثيقة، تم خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب إغراق الاستخبارات الفرنسية بصورة رسمية بالمعلومات، من دون أن يكون ثمة حاجة إلى عملاء أو جواسيس من النمط القديم. وكما سبق القول، تدفقت المعلومات من بودنشاتس وأودت وجورينج شخصياً. هذا التدبير الألماني، تطلب بطبيعة الحال دعوة الجنرال فيومان، القائد الأعلى لسلاح الجو الفرنسي، إلى برلين، ليكوّن شخصيا صورة عن تسلح ألمانيا في مجال سلاح الجو[1]. وبالفعل، زار الجنرال الرايش منتصف آب/ أغسطس من سنة 1938، قبل فترة قصيرة من اتفاقية ميونيخ، يصحبه وفد يتألف من خمسة خبراء، حيث أمضى أياماً خمسة. يخبرنا هذه المرة مفتش سلاح الجو الألماني العام، إدهارد ميلش، الذي توفي في كانون الثاني/ يناير سنة 1973، كيف قدم معلومات للوفد وخدعه. بعد خطب الترحيب وتبادل

(1) إيرفينج، ص 115 وما يليها.

الأنخاب في صحة المستقبل السلمي، ركّب الألمان واحدة من أكثر الخدع تأثيراً في التاريخ العسكري الأحدث: لقد استقدموا جميع طائراتهم المطاردة السليمة إلى مطار كبير في جنوب ألمانيا، حيث كان مقرراً أن يقوم الجنرال فييومان بهبوط قصير. أما في أوغسبرج، فقد أتيحت له فرصة التعرف إلى طائرة مسر شميدت ذات الطراز الأحدث، أعني طائرة مي 109. وبينما عرضت طائرة ها 111في معامل هاينكل في أورانيانبرج قدرتها العجيبة على المناورة حتى بمحرك واحد، ثم رتيب الأمور بطريقة مكنت قائد سلاح الجو الفرنسي الأعلى من الاستماع إلى أصوات عشرات طائرات ها111 الجديدة تماماً وهي في قاعة الاختبار. أخيراً، بلغ العرض ذروته في زيارة تفقدية قام بها إلى منشآت الدفاع الجوي في المصنع، حيث كان الألمان قد فكروا بكل شيء ورتبوه، بما في ذلك الأقلام العشرة المدببة الرؤوس، التي وضعت في متناول أعضاء الوفد. وقد تأثر الجنرال الفرنسي بما شاهد إلى حد أنه صرخ: «لقد سحقت». بعد الانتصار الخاطف في الغرب سنة 1940، حظيت شعبة «الجيوش الأجنبية» و«سلاح الجو الأجنبي غرب»، وشعبة العمليات في القيادة العليا للجيش، بفرصة نادرة مكنتها من معرفة النهج الفرنسي في تكوين صورة عن العدو: فقد تم الاستيلاء على قطار في محطة لاشاريته على نهر اللوار، محمل بكميات كبيرة من الوثائق والمستندات الخاصة بالمقر العام الفرنسي، بينها تقويمات للأوضاع أجراها جاملان[1]، أكدت ما كان معروفاً بالممارسة، وهو أن المعلومات التي سربت إلى الفرنسيين فعلت فعلها، وأن هؤلاء بالغوا في قوة جدار الغرب، وعدد الفرق الألمانية وأساطيل سلاح جو ألمانيا، حتى إن القائد الأعلى الفرنسي اعتقد أن جيشه عاجز عن القيام بهجوم ضد تحصينات ألمانيا في الغرب، لأسباب أهمها أن

(1) ليس، ص252 وما يليها.

لدى ألمانيا قدرة على استخدام ما مجموعه سبعة آلاف طائرة هناك. لقد حققت الحرب النفسية السرية نجاحاً عملياً ضد الفرنسيين، بفضل المعلومات «السرية» التي أمدت بها استخباراتهم، وإن كانت لم تنجح في إبقائهم خارج الحرب.

obeikandl.com

الفصل الثاني

بين حلفاء مقبلين

تطورت، خلال السنوات الأخيرة السابقة للحرب العالمية الثانية، صلات شخصية على مستوى الملحق العسكري أيضاً بين الاستخبارات البريطانية والألمانية، لكنها كانت من طبيعة مغايرة لتلك التي قامت بين الألمان والفرنسيين. هنا، لم تكن الكلمة الفصل لاستخبارات سلاح الجو الألماني، بل كانت للجيش المحافظ، الذي كان يعتبر «فريدريكيا»، مثلما كانت البحرية تعد «قيصرية». أما إذاعة هذه الأحداث، التي جرت وراء الكواليس ويعرفها عدد قليل جدا من «العارفين بالوثائق»، فترجع بدورها إلى شاهد رصين من دائرة الملحقين العسكريين هو: اللواء اللاحق كينيث سترونج، وكان آنذاك ملحق بريطانيا العسكري الثاني في برلين، الذي رفد مذكراته الموسومة: «الاستخبارات في الحرب والسلم» بكتاب ثان هو «حملة الأسرار»، ضمّنه كشوفاً تستحق الاهتمام[1]. كان سترونج، الذي عاش منذ سنة 1937 في برلين، يتحدث الألمانية بطلاقة، وقد تعلمها بعد الحرب العالمية الأولى، بدءاً من سنة 1919، حين كان في المقر العام لجيش الاحتلال البريطاني بفيسبادن، كضابط في استخبارات الجيش. وقد اكتملت معرفته باللغة الألمانية فيما بعد، بسبب ميله إلى يهودية ألمانية، يتحدث عنها باقتضاب وبلغة كثيرة المعاني، ذلك أنهما أحبا بعضهما كثيراً، لكنهما انفصلا، فبقي عازبا.

(1) سترونج. الكتاب الثاني، الذي يتضمن فصلاً خاصاً عنوانه «ألمانيا»، ص 109-156.

هناك معلومات كثيرة في ما يخبرنا سترونج به، خاصة وأن كل شيء كان مختلفاً آنذاك عنه اليوم. صحيح أنه لم يجد في برلين مخبراً سخياً كبودنشاتس، لكنه وجد محدثاً جذاباً هو الرائد أولريش ليس، ضابط شعبة الأركان الثالثة، ورئيس «الجيوش الأجنبية غرب»، الذي كان وضعه يمكنه من خوض نقاشات متخصصة. تجاوزت الصداقة بين ضابط الاستخبارات البريطاني ونظيره الألماني الحرب والكارثة الألمانية، واستمرت حتى وفاة ليس سنة 1967، فكانت ضربا من استباق للتحالف المستقبلي، الذي قام بين البلدين. كتب سترونج حول علاقته بصديقه:[1] «خلال إقامتي في برلين، كان الرائد أولريش ليس قائداً لشعبة في الأركان العامة هي «الجيوش الأجنبية غرب». وكان يعرف إنجلترا خير معرفة، وعلى درجة رفيعة من التأهيل. ومع أنني لم أكن أراه بالقدر الذي أتمناه، فإنني تعلمت أن أقدر صفاته، هو الذي كان يتفهم وضع العالم غير الألماني أيضاً. وقد أتيحت لي الفرصة لتبادل الخبرات معه بعد الحرب». يعرج سترونج في كتابه الثاني على ليس ويكتب عنه بتفصيل ويعتبره «رفيقاً محبباً إلى أبعد حد، متوسط القامة، غض لون الوجه، مرحاً ومحباً للعمل، هو من جوانب كثيرة ضابط ألماني نموذجي». «لكنه»، يضيف سترونج، «لم يكن من أسرة عسكرية، الأمر الذي يعد غير عادي على الإطلاق. كان ليس يتحدث بطلاقة الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والإيطالية، وزار إنجلترا مرات كثيرة، حيث ألحق سنة 1934 بالبطارية الميدانية السابعة للمدفعية الملكية، حيث كسب أصدقاء كثيرين».

يقدم سترونج كشوفاً تتخطى إعلانات الصداقة، وتلقي أضواء على الجانب الآخر من الاستخبارات، فيحدثنا عن الاتصالات الرفاقية بين ضباط

(1) سترونج، ص 118 وما يليها.

الاستخبارات البريطانية والألمانية في برلين. ويصف كيف كانت الأمور تجري خلالها. كما يزيح الستار عن معطيات يمكن فهمها إن هي ربطت بظروف ذلك العصر. ويكتب على سبيل المثال بسخرية مفعمة بالتفهم عن تدابير احترازية اتخذتها قيادة القوات المسلحة لمراقبة التواصل الاجتماعي بين الضباط الأجانب والألمان[1]: عندما كان يدعو ضابطاً ألمانياً إلى الطعام، كان هذا يحصل دوماً على موافقة رؤسائه المسبقة. هذه الموافقة كانت تمنح، في حالة سترونج، من دون صعوبة، لأنه كان يعتبر صديقاً لألمانيا. أما في الحالات الأخرى، فكان على المدعوين تقديم تقرير في اليوم التالي عن الأمسية، وكان هناك نقاط رئيسة عليهم ذكرها بالتفصيل كأسماء من شاركوا في العشاء، والموضوعات التي تطرقوا إليها، ثم أشياء خاصة كثيرة. يقول سترونج: «أحياناً، كانت تترتب على هذا نتائج مضحكة، إذ كان المرء يتعرض في المناسبة الاجتماعية التالية إلى أسئلة يطرحها عليه ضابط أعلى رتبة، لهدف جلي هو التأكد من صحة التقارير التي وصلته». بيد أن الأمور لم تكن دوماً على هذه الحال في غرفة الحرب الأمامية، حيث لم يكتف المرء دوماً بطرح أسئلة متحفظة وتلقي أجوبة ديبلوماسية، في محاولاته تعيين وجهته وتلمس دربه إلى الحقيقة. وعلى العموم، فإن هذا لم يكن ضروريا أيضاً. يخبرنا سترونج وستيلين أنهما كانا يتحركان بحرية واسترخاء نسبيين في ألمانيا، حيث كان باستطاعتهما التأكد من أشياء معينة، رغم أنهما كانا يخضعان للمراقبة من حين لآخر. من الجلي أن قيادة الدولة الألمانية كانت تميل آنذاك إلى إظهار سلاحها، والتبجح بقوتها الجديدة أكثر مما كانت تسعى إلى إخفائها. لكن الملحقين العسكريين النابهين والمتفهمين من أمثال سترونج كانوا يصطدمون، عندئذ، بظاهرة غير متوقعة: هي أن قوة ألمانيا

(1) سترونج، الكتاب الأول، ص 67 وما يليها.

المتعاظمة وقدرات قواتها المسلحة الضاربة كانتا هما بالذات ما أقلق بعض أصدقائهم الألمان. لقد قيِّض لهؤلاء الأغراب أن يحصلوا على نظرة مفاجئة داخل هذه الثنائية، التي اخترقت خلال تلك السنوات سلك الضباط، وخاصة منهم ضباط الجيش. وإنه لشيء على جانب كبير من الأهمية أن يكون شاهد هذه الظاهرة بريطانياً، لأن تقارير الضباط الألمان إلى رؤسائهم لم تكن تحمل دوماً حقيقة مسامراتهم الاجتماعية، ما دام تضمينها فيها يعني الانتحار، ولأن بعض الضباط الألمان، وبالأخص متوسطي العمر منهم، ممن شاركوا في الحرب العالمية الأولى، كانوا كثيراً ما يذهبون بعيداً جداً في اعترافاتهم، كما يكتب سترونج. كانت الكحول وجو الزمالة الرفاقية يطلقان العنان لألسنتهم، وكان يلعب دوراً في هذا السياق معرفتهم أنهم بصحبة رجال أحرار. وقد كانت هذه الأمور تحدث بصورة خاصة عند الناطقين بالألمانية من الإنجليز، حيث كان المرء يستطيع التنفيس عن كربه إلى ساعة متأخرة، ويقول أشياء مفاجئة، يخبرنا سترونج بعضها: «كان عدد من الأصدقاء، الذين هم في عمري ورتبتي (رائد) حريصين على التخلص من تحفظهم في أمسيات كهذه، وكانوا يناقشون المعلومات الشديدة السرية حول ألمانيا، التي كنا نجدها قيِّمة بدرجة لا يمكن تقديرها». لا شك في أن اعترافات هؤلاء كانت ثمينة قيِّمة، فقد أظهرت المزاج الحقيقي، في سلك الضباط المتوسطين قبل كل شيء. وكان سترونج راضياً إلى حد ما عن هذه الاعترافات، وراغباً في غيرها، لكنه كان أيضاً فرحاً وحائراً، لأن الألمان يفعلون من دون تحفظ ما كان إنجليزي سيحجم بالتأكيد عن فعله. هكذا سأل الرواد والمقدمين الألمان، وكان بعضهم قد بدأ يزوره منذ فترة قصيرة وحسب: لماذا يتحدثون بهذا القدر من الصراحة. عندئذ، كان يتضح أنهم كانوا لا يريدون حرباً جديدة، خاصة إن كانت حرباً عالمية. لقد كانوا يخافون الحرب خوفهم الجحيم، ولا يرون سببا لتقويض ما تم بناؤه بنجاح،

من خلال مغامرات حربية تفتقر إلى الشعور بالمسؤولية. لهذه الأسباب، أحسوا بالتضامن مع زملائهم من الإنجليز خاصة. يفسر هذا صراحة الأحاديث الألمانية، كما يشهد عليها السير كينيث. هكذا كان هناك، إذن، إفشاء غريب للأسرار قبيل الحرب، لا ينضوي تحت أي ترسيمة موروثة: لئن كان الألمان يفصحون عن دواخلهم بهذا القدر من الانفتاح، فلأنهم كانوا يتوقعون أن تنقل اعترافاتهم إلى الجهات المعنية. نعم، لقد قالوا بصراحة إنهم يريدون استنفار الحكومة الإنجليزية، لتتصرف وتقاوم بفاعلية التجبر والغرور المنفلتين من عقالهما. وقد أخبرنا سترونج أنهم اقترحوا المبادرة فوراً إلى وضع فرقة إنجليزية في فرنسا، لإظهار وحدة التحالف القلبي، عسى أن يعيد هذا هتلر إلى صوابه، ويمهد الطريق أمام التفاهم الأوروبي.

لكن هذه المحاولات، التي كان باعثها الأمل واليأس، بقيت دون جدوى، حتى تجاه الحكومة الإنجليزية، التي توصلت من خلالها إلى معلومات ومعارف أقرب إلى الوضع الحقيقي من تقارير السفير هندرسون، أسير سحر هتلر. لقد واصل قدر أوروبا مساره، ثم تنامى إلى مأساة نزلت بالغرب في صورة حرب جديدة، وإلى كارثة حلت بالرايش الألماني وشعبه.

obeikandl.com

الفصل الثالث

موسكو والسرية الشاملة

كيف كان وضع الملحقين العسكريين الأجانب في موسكو أثناء هذا الوقت؟. ليس بوسع المرء التفكير بتعارض أكبر من التعارض الذي كان قائماً بين ظروفهم الحياتية وشروط عملهم في العاصمة الألمانية والسوفياتية خلال تلك الحقبة، حيث لم تكن هناك معلومات سرية تسرب أو يتم تداولها في زوايا هادئة، أو حوارات مفتوحة حول مشكلات الحرب والسلام المشتركة. كان الملحقون العسكريون العشرون، الذين قبل الاتحاد السوفياتي اعتمادهم، يعيشون فعلياً في معزل (جيتو). وذلك ما كان عليه وضع الملحق العسكري الألماني، إرنست كوسترينج، الذي ذهب إلى هناك بمؤهلات ممتازة، لم تتوفر في أي من زملائه، من شأنها أن تمكنه من إقامة صلات شخصية مميزة. زار كوسترينج موسكو في مهمة عسكرية لأول مرة بين عامي 1931 و 1933، عندما كان عقيداً. وزارها مرة ثانية بين عامي 1935 و 1941، عندما كان عميدا. لقد كان يتقن الروسية كأي روسي، لأنه ولد في روسيا سنة 1885 وتلقى تعليمه في مدارس موسكو العليا. كما كان يعرف النفسية الروسية بدقة، ويميل ميلاً شديداً إلى الشعب الروسي، ويعرف ما يجب أن يعتقده حول السادة الجدد للإمبراطورية العملاقة. لهذه الأسباب مجتمعة، تحتل مذكراته أهمية خاصة، فضلاً عن أنها غطت فترة تمتد حتى نشوب الحرب مع بولونيا، واستكملت من خلال تقارير رسمية كانت قد أرسلت إلى وزارة الدفاع الألمانية، وإلى أركان الجيش العامة ووزارة

الخارجية (بين أيلول/ سبتمبر سنة 1935 وأيار/ مايو سنة 1936)[1]. أضف إلى ذلك أنها تضم رسائل خاصة تتصل بعمله كان قد أرسلها إلى رئيس المقر العام الرابع في أركان الجيش العامة، العقيد ثم العميد يور. ف. تيبلزكيرش، وبدءاً من أيار/ مايو 1944 إلى خلفه ماتسكه، تصف الواقع السوفياتي. إن قصة حياة وتقارير ورسائل كوسترينج هي مصدر ثر وموثوق للمعلومات عن الاتحاد السوفياتي وتطوراته في تلك السنوات، أكد هذا المراقب العليم والخبير فيها أن المرء لن يعثر هناك على «الأوضاع» القائمة في بلدان كثيرة، وبالأخص في البلدان الغربية، وعليه إعداد نفسه للتعامل مع ديناميكية شمولية وتطور متسارع التقدم، الأمر الذي غالباً ما عجز الزوار الأجانب عن رؤيته.

لم تكن إمكانية التحرك الحر نسبياً متاحة للأجنبي في الاتحاد السوفياتي، خاصة إن كان ملحقاً عسكرياً، فقد تمت مرافقة الملحقين أو مراقبتهم، عندما كانوا يقومون بجولات رسمية في البلد. ولم يجرؤ أحد على إقامة علاقات اجتماعية بهم، بما في ذلك أصدقاء ومعارف كوسترينج من زمن طفولته في موسكو. أما في اللقاءات الرسمية، والمآدب والاحتفالات، التي كانت تدوم إلى ساعة متأخرة من الليل، فكان يحدث أحياناً أن تُشرب أنخاب، وتحدث عمليات تآخ عاطفية، غير أنه لم تجر أبداً حوارات سرية. إن ما كان يحدث في الاتحاد السوفياتي وفي الجيش الأحمر، كان محاطاً بجدار من الصمت، مداخله القليلة تحت حراسة مشددة. كتب كوسترينج يقول: «كان الروس يعرفون من الصحافة الأوروبية كل أمر عسكري مهم، في حين لم نعرف نحن شيئاً من الصحافة السوفياتية»[2]، حتى بدا وكأنه لا وجود لجيش أحمر بالنسبة لها، وسكتت

(1) كوسترينج، ص 93.

(2) المرجع ذاته، ص86.

عن أي شيء يمت إلى العسكرية بصلة.

تضيء إحدى القصص، التي يرويها كوسترينج، أوضاع موسكو في تلك الحقبة: التقى كوسترينج خلال استقبال احتفالي بالذكرى السنوية لثورة أكتوبر، ضابطاً روسياً كبيراً تعرف إليه في فترة سابقة، وأمضى معه ساعات ممتعة إبان زيارة قام بها إلى وحدات عسكرية. بعد عودته من المقاطعة، حيى الروسي الجنرال الألماني بصوت مرتفع ومرح، وجاء به إلى حلقة صغيرة من الضباط الشباب. بما أنه كان يتحدث الروسية بطلاقة كبقية الموجودين، تعالت حماسة الحاضرين بعد قليل، وتم تبادل الأنخاب واختلط الصخب بالضحك، مما أثار غضب الجالسين حول الطاولات المجاورة. عندما ظهر رئيس البروتوكول، وقال شيئاً في أذن «رئيسنا»، تم قطع الاحتفال بفظاظة، وانتهى لقاؤنا إلى صمت يشبه الموت[1].

لم يكن التجسس واستقبال «العملاء» بين مهام الملحق العسكري، لذلك لم يرسل أحدا إلى داخل البلد لتنفيذ مهام كلفه بها، كما قال كوسترينج ساخرا. إن واجبات الملحق لا تنصب على مجالات كهذه، بل تنتمي إلى الصعيد العسكري / السياسي الأعلى، حيث سرعان ما عرف المراقب اليقظ كوسترينج بوجود ميل شديد إلى التسلح والقوة العسكرية، وقد حذر رؤساءه في برلين من الاستخفاف بالجيش السوفياتي، وأشار إلى قدراته العامة، وإلى صناعة السلاح والصناعة الثقيلة السريعة النمو، التي كانت لها الأولوية في الخطة الخمسية، وبعث بتقارير حولها، تبين الاهتمام الذي كرسه لمتابعة التطور التقني والعسكري العام، وللتأكيد على حدوث تحسن نوعي مستمر في قدرات الجيش الأحمر، طاول أسلحته وتدريباته. هكذا جاء في التقرير الأولي حول عرض الأول من أيار/مايو: «إن ثياب

3 كوسترينج، ص 174.

القوات وتسليحها كانا جيدين بصورة لافتة، وكذلك تحسن ثياب «البروليتاريا المسلحة» التي مرت أمام منصة العرض (نحو 8000 رجل)[1].

تحتل الأهمية ذاتها ملاحظات كوستارينج حول «تطهيرات» سنتي 1936 / 1937 الإرهابية، التي لم تقتصر على أعضاء في الحرس السوفياتي القديم من أمثال زينوفييف وكامينييف وبوخارين ورادیك وسواهم من ثوريي الساعة الأولى، بل شملت، كما هو معلوم، المارشال توخاتشيفسكي، الذي مثل الاتحاد السوفياتي سنة 1936 في احتفالات التتويج الملكية في لندن. وقد سقط، إلى جانب هؤلاء، ما يربو على خمسة آلاف من كبار الضباط والموظفين ضحايا للتصفيات، التي كتب كوستارينج عنها قائلاً: «تم تطهير الجيش الروسي من العناصر الصديقة لألمانيا بثمن باهظ أخذ شكل خسارة فادحة في قدرته العسكرية الضاربة، لأن مزاج الحكومة السوفياتية كان موجهاً بصورة صريحة ضد ألمانيا»[2]. لكن كوستارينج يرى أن سنة 1936 شهدت إعادة إرساء سياسة الاتحاد السوفياتي الداخلية على خط قومي، وعلى الإستعداد «للحرب الوطنية». فضلاً عن هذا، يحق للملحق العسكري الألماني تسجيل نجاح استخباري في رصيده، يدين به إلى تضامن ملحقي الأسلحة غير الشيوعيين، الذي لا يدخل ضمن ترسيمة تصوراتنا العامة، يرجع إلى أن هؤلاء كانوا يبقون متكاتفين، عندما كانت حكوماتهم تتعارض سياسياً بعضها مع بعضها الآخر، لأن مصاعبهم المشتركة كانت تجعلهم حلفاء، يتبادلون العون عند الحصول على المعلومات، الذي كان قد صار صعباً بصورة خاصة، فقامت بعد حين بورصة أخبار نظامية في موسكو، تبادل القوم فيها المعلومات السرية مثلما كانوا يتبادلون المواد العينية، التي

(1) المرجع ذاته، ص 96.

(2) المرجع السابق، ص 136.

يحصلون عليها من هذا المصدر الشحيح أو ذاك، حسب مبدأ «خذ وأعط». هنا، كان يجري تبادل حيوي للأخبار، وإن كان لا يجوز على كل حال الخلط بين بورصة أخبار موسكو وبين الثرثرة، التي نشرها في سويسرا عند بداية الحرب العالمية الثانية صحافيون غامضون بوصفها مواد إخبارية سرية، سنورد فيما بعد أمثلة عليها.

نجح تضامن الملحقين العسكريين الغربيين إحدى المرات في تخطي ألاعيب السرية السوفياتية. بالنظر إلى النقص في المواد المصورة عن الجيش الأحمر، خطر لمحلق يطل مسكنه على الميدان الأحمر خاطر عظيم ـ لا يذكر كوسترينج اسمه أو جنسيته ـ: فبينما كان هو نفسه يشارك كما في كل سنة في استعراضات الميدان الأحمر، حيث لم يكن يسمح بالتصوير، كانت سيدة المنزل تصور بكاميرا يدوية طوابير الاستعراض من نافذة منزلها المفتوحة، بطريقة يصعب مراقبتها من الخارج. بما أن التصوير تكرر لسنوات متتابعة، فإن تقويم الأفلام المصورة أظهر بطريقة قاطعة تحسن سلاح وتجهيز الجيش الأحمر، وارتفاع قدراته الضاربة.

هذا الفيلم كان أكثر المواد الاستخبارية أهمية، التي جلبها كوسترينج معه من موسكو سنة 1939، وربما تكون أسهمت في التقارب الألماني / السوفياتي. ذلك أن كوسترينج قدم مطلع سنة 1939 إلى برلين، بأمر من ريبنتروب ـ الذي صار وزير خارجية ألمانيا منذ 4/ 2/ 1938 ـ ليقدم تقريرا حول ما في حوزته من أخبار. خلال المحادثة الودية في برلين باغته وزير الخارجية بالسؤال الآتي: «يقال إنك تعرف فورشيلوف جيداً» . . . «نعم. . . على كال حال. . . ولكن». . . «باستطاعتك إذن أن تتناول قدحا من الشراب معه، وتخبره أننا لسنا قوما جد أشراراً». بعد موعد مع كايتل، أمر كوسترينج بالذهاب إلى هتلر ـ إلى اوبرسالزبرج ـ، حيث قدم تقريراً دام نحو ساعتين،

أنصت هتلر إليه بهدوء واهتمام ظاهرين، لفت كوسترينج خلاله نظره إلى الفيلم الذي في حوزته، والذي يقدم معلومات مهمة عن الجيش الأحمر، بلقطاته التي أخذت خلال سنوات كثيرة. هذا الفيلم كان مثار اهتمام عظيم، فقد قصته أول الأمر «الجيوش الأجنبية شرق»، ليستطيع مفتشو الأسلحة المختلفون تقديم تقارير خبرة حوله، ثم أعيد لصقه من جديد وعرض في النهاية على هتلر، الذي بدا شديد التأثر بما رآه، وخاصة بشخصية ستالين. بدورها، حققت التحذيرات الأخرى نجاحاً جسده تقارب القائد الأعلى للقوات المسلحة الألمانية صيف سنة 1939 مع موسكو، عبر صلات ديبلوماسية تمنحه التغطية الضرورية عند نشوب الحرب، التي كان ينوي خوضها ومن المستحسن إبقاء القوى الغربية بعيدة عنها، لذلك سربت إليها طوعاً المعلومات اللازمة جميعها حول قوة القوات المسلحة الألمانية، فإن تم ردعها وتخويفها من جولة قتال جديدة، يكون قد جاء وقت الغنيمة الكبرى، التي تمثلها مخازن قمح أوكرانيا.